شبكة الألوكة / آفاق الشريعة / مقالات شرعية / عقيدة وتوحيد

مكانة العبودية والاستعانة وتحقيق التلازم بينها





الشيخ أ. د. عرفة بن طنطاوي

المصدر: قَطعُ العَلائِقِ للتَّفَكُّرِ في عُبُودِيَّةِ الخَلائِقِ (بحث محكم) (PDF)
مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 31/1/2023 ميلادي - 9/7/1444 هجري

الزيارات: 1934

مكانة العبودية والاستعانة وتحقيق التلازم بينها

قال تعالى في مستهل افتتاح القرآن في فاتحة الكتاب: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: 5].

وهذه الآية تُعَدُّ من أجمع الآيات التي جمعت بين منزلتي العبادة والاستعانة؛ ليبيّن الله لعباده أن تحقيق العبودية - عبادة واستعانة - والتلازم بينهما هي الغاية من وجود الخلق.

وإنما قدم المعمول في "إياك"؛ ليفيد حصر العبودية والاستعانة، واختصاصها بالخالق وحده جل في علاه دون سواه، فلا يُعْبد إلا إياه ولا يستعان إلا به.

وتقديم العبادة على الاستعانة: من باب تقديم العام على الخاص، ومن باب تقديم حق الخالق العظيم الغني سبحانه عن خلقه من كل الوجوه، على حق المخلوق الضعيف الفقير إلى ربه وإلى معونته من كل الوجوه.

والعبادة والاستعانة: "هُمَا الْكَلِمَتَانِ الْمَقْسُومَتَانِ بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نِصْفَيْنِ، فَنَصِفُهُمَا لَهُ تَعَالَى، وَهُوَ "﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾"، وَنِصْفُهُمَا لِعَبْدِهِ وَهُوَ"﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾"[1].

وإذا تأملنا في تعريف شيخ الإسلام للعبادة بأنه "اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة"[2]، لوجدنا أن الاستعانة تدخل في مسمى العبادة، وقد أُفْرِدَت الاستعانة هنا عن العبادة في هذا المقام وذكرت معها؛ لكونها وسيلة وطريق مؤدٍّ إليها.

وفي بيان فضلها وعظيم منزلتها يقول ابنُ القيّم رحمه الله:

وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَى إِلَى هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّى قِيلَ: أَنْزَلَ اللَّهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: 5].

وقد جمعت هذه الآية على وجازتها من الفوائد دُررًا، ومن البلاغة كنوزًا، وسنشير إلى شيء من ذلك:

أولًا: السرُّ في تقديم ما حقُّه التَّأخير.

فقد قُدِّم المفعولُ على الفعل في الآية، وهذا فيه ثلاث فوائد[3]:
الأولى: فيه أَدَبُ العِبَادِ مَعَ اللَّهِ بِتَقْدِيمِ اسْمِهِ عَلَى فِعْلِهِمْ.

الثَّانية: فِيهِ الِاهْتِمَامُ وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِهِ.

الثَّالثة: فِيهِ الْإِيذَانُ بِالِاخْتِصَاصِ، الْمُسَمَّى بِالْحَصْرِ، فَهُوَ فِي قُوَّةِ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ.

ثانيًا: السرُّ في تقديم العبادة على الاستعانة.

ذكر أهل العلم عدَّة حكم منها:

1- تَقْدِيمُ الْعِبَادَةِ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ فِي الْفَاتِحَةِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْغَايَاتِ عَلَى الْوَسَائِلِ، إِذِ الْعِبَادَةُ غَايَةُ الْعِبَادِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا.

2- وَلِأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِأُلُوهِيَّتِهِ وَاسْمِهِ (اللَّهِ)، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاسْمِهِ (الرَّبِّ)، فَقَدَّمَ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلَى إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، كَمَا قَدَّمَ اسْمَ (اللَّهِ) عَلَى (الرَّبِّ) فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

3- وَلِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمُطْلَقَةَ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِعَانَةَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَكُلُّ عَابِدٍ لِلَّهِ عُبُودِيَّةً تَامَّةً مُسْتَعِينٌ بِهِ وَلَا يَنْعَكِسُ، لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ قَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى شَهَوَاتِهِ، فَكَانَتِ الْعِبَادَةُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ.

4- وَلِأَنَّ الِاسْتِعَانَةَ جُزْءٌ مِنِ الْعِبَادَةِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ.

5- وَلِأَنَّ الِاسْتِعَانَةَ طَلَبٌ مِنْهُ، وَالْعِبَادَةَ طَلَبٌ لَهُ.

6- وَلِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُخْلِصٍ، وَالِاسْتِعَانَةَ تَكُونُ مِنْ مُخْلِصٍ وَمِنْ غَيْرِ مُخْلِصٍ.

ثالثًا: السرُّ في إعادة العامل (إيَّاك) وعدمِ الاكتفاء بالعطف.

التَّكرارُ يفيد التَّنْصيصَ على حصرِ الاستعانة به كذلك مثلَ العبادة، فلو اقتصرنا على ضمير واحد (إيَّاك نعبد ونستعين)، لم يفهم حصر المستعان إنَّما حصْرُ المعبود فقط.

ففِي إِعَادَةِ (إِيَّاكَ) مَرَّةً أُخْرَى دَلَالَةٌ عَلَى تَعَلُّقِ هَذِهِ الْأُمُورِ بِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْفِعْلَيْنِ، فَفِي إِعَادَةِ الضَّمِيرِ مِنْ قُوَّةِ الِاقْتِضَاءِ لِذَلِكَ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا قُلْتَ لِمَلِكٍ مَثَلًا: (إِيَّاكَ أُحِبُّ، وَإِيَّاكَ أَخَافُ)، كَانَ فِيهِ مِنَ اخْتِصَاصِ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ بِذَاتِهِ وَالِاهْتِمَامِ بِذِكْرِهِ، مَا لَيْسَ فِي قَوْلِكِ: (إِيَّاكَ أُحِبُّ وَأَخَافُ) .[4]

رابعًا: السرُّ في إطلاق الاستعانة وعدمِ تقييدها بالمفعول.

أطلق سبحانه فعلَ الاستعانة ولم يحدِّد نستعين على شيء أو نستعين على طاعة أو غيره، إنما أطلقها لتشمل كلَّ شيءٍ وليست محددة بأمر واحدٍ من أمور الدنيا أو الآخرة، والمعنى: إيَّاك نستعين يا الله على عبادتنا، وعلى أعمالنا، وعلى دراستنا، وعلى تربية أبنائنا، وعلى خدمة ديننا، وعلى نُصرة شريعتنا، وعلى كلِّ صغيرة وكبيرة في أمور دنيانا وأخرانا؛ لأنَّ حذف المعمول يؤذن بالعموم.

[1] مدارج السَّالكين (1/ 95).

[2] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، 10/ 149، الموسوعة الفقهية (29/ 256).

[3] مدارج السَّالكين (1/ 98).

[4] مدارج السَّالكين (1/ 99).

حقوق النشر محفوظة © 1445هـ / 2023م لموقع الألوكة
آخر تحديث للشبكة بتاريخ : 21/5/1445هـ - الساعة: 14:36